دراساتٌ لغوية:

مقامات أصبح في القرآن الكريم

The contexts of "*Aṣbaĥ*" in the Holy Qur'an

Konteks penggunaan 'aṣbah di dalam Al-Quran

ياسر مُحَمَّد بابطين*

ملخص البحث:

للأفعال الناسخة "كان وأخواتها" دلالات وظيفية شغلت اهتمام النحاة في صنعة الإعراب، ثم امتدت إلى التأويل؛ في حين غاب عن الدرس النحوي، وما بني عليه من تحليل لغويٍّ الدلالاتُ المعجمية للأفعال الناسخة؛ وأثر الفروق الدلالية للمادة المعجمية في التفريق بين مقامات ما تقاربت دلالته منها، إلا أن تتبع مواضع الأفعال الناسخة في سياقاتها من الكلام الرفيع، ومحاولة استبدال الناسخ بما ألحق به في الدلالة الوظيفية، وتأمل ما بين الاستعمالين من دقائق الدلالات، ولطائف الإشارات؛ كل ذلك يؤكد أن للدلالات المعجمية حضوراً مؤثراً في تشكيل ملابسات السياق، ونسج خيوط الصورة النهائية للنص، وعلى هذا الأصل ارتكزت هذه الدراسة لتخط طريقها بين مقامات "أصبح"، في محاولة لاستجلاء أثر الدلالة المعجمية على جو السياق وحركة المعنى. وتوصلت الدراسة إلى تأثر المعنى بالدلالة المعجمية للتراكيب الوظيفية، وما يلحق ذلك من الفروق الدلالية، ولو على سبيل الإشارة، وأن البحث البياني يتوقف على النظر في أدق تفاصيل السياق، وربطها بالمقام، وأنه مما يجلي المعنى الوقوف على نظائر الآية لجمع أطراف القصة وتَبَيُّن وجه دلالة ما تعاقب من الألفاظ، وأن إطلاقات المفسرين وعمومات التفسير؛ كثيراً ما تكون على سبيل التجوز أو التغليب.

الكلمات المفتاحية: أصبح – البلاغة القرآنية — مقامات — السياق – الدلالة.

Abstract:

The incomplete group of verbs known as '*Kāna* and its sister verbs', have functional significances that always have been a focus study of the grammarians in the topic of parsing. It had been a topic in hermeneutics as well albeit the

* أستاذ مساعد، عميد معهد اللغة العربية للناطقين بغيرها، جامعة الملك عبد العزيز، المملكة العربية السعودية.

absence of their functional meaning in the Arabic grammar which was merely based on their lexical meaning and the similar contextual meanings they carry. The attempt to locate their functional meaning in speech such as replacing them with functional meanings and comparing the two usages to observe the minute difference proved that their lexical meanings affect the contextual meaning and ultimately shape the final meaning of a given sentence. Based on this observation, the present study will try to shed light on the use of this group of Arabic verbs in the Holy Quran focusing on the significances of the verb '*aṣbah*', for its diversity of contexts in meaning. As for the rest of the other verbs, the study merely presents them statistically in order to check the overall significance of their contexts.

Keywords: *Aŝbaĥ*-Quranic Konteks penggunaan 'aṣbah di dalam Al-Quran Rhetoric-Case-Context-Significance.

Abstrak:
Kumpulan kata kerja yang dikenali sebagai 'kāna' dan kumpulannya, mempunyai kepentingan fungsi yang sentiasa menjadi fokus para sarjana tatabahasa Arab dalam permasalahan i'rāb. Ia juga telah menjadi perbincangan dalam permasalahan pentakwilan makna walaupun aspek makna yang sedemikian tidak begitu menonjol di dalam perbahasan nahu Arab yang biasanya adalah berdasarkan makna leksikal dan makna kontekstual yang dibawa. Usaha untuk mengesan makna fungsi kumpulan kata kerja ini seperti dengan menggantikannya dengan makna-makna yang membawa fungsi lain dan membandingkan di antara dua penggunaan tersebut untuk memperhatikan perbezaan halus di antara makna-makna itu membuktikan makna leksikal memberi kesan terhadap makna kontekstual dan seterusnya membentuk maksud sesuatu ayat. Berdasarkan pemerhatian ini, kajian ini akan cuba untuk meninjau kegunaan kumpulan kata kerja ini seperti yang terdapat dalam Al-Quran, dengan menjadikan salah satu kata kerja kumpulan ini iaitu 'asbaha' memandangkan kepelbagaian makna kontektualnya. Kata-kata kerja lain dalam kumpulan ini walaubagaimanapun,kajian ini akan hanya memperincikannya secara statistik untuk melihat kesan keseluruhan konteks mereka.

Kata kunci: 'Asbaha' – Balaghah Al-Quran – Keadaan i'rab- Konteks – Kepentingan.

مقدمة:

للإعجاز البياني تجليات متعددة، فصاحة مرسلة، وبلاغة مقيدة، في الصوت والكلمة والتركيب ثم السياقات على تفاوت أُطرها، وإحدى تجليات الإعجاز القاطعة للأطماع تخير الكلمة الأحق بموضعها من السياق مادةً وصياغةً، بحيث لو حلَّ محلها غيرُها مما يُقارب معناها أو دخلَ على صيغتها زيادة أو

نقص أو ترددت بين الاسمية والفعلية أو التعريف والتنكير أو الإفراد والجمع، لو استُبدل حرف بحرف؛ لنزل الكلام عن رتبته، وإن كان البديل أحقَّ بسياق آخر يشابهه، إلا أن لكل مقامٍ مقالاً هو الأليق به، ولكل جزء من أجزاء السياق موقعه من دلالات الكلام وإشاراته، يقول الخطابي: (عمود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به، الذي إذا أُبدل مكانه غيره جاء منه: إما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، وإما إذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة).[١]

ويقول ابن عطية: (كتاب الله؛ لو نُزعت منه لفظة ثم أُدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد).[٢]

من هنا طرحت الدراسة سؤالاً عن خصوصية لفظ "أصبح"، ووجه إيثاره في القرآن الكريم على سائر أخوات "كان" الدالة في عرف النحاة على نفس معناها، ولا سيما "صار" التي كثيراً ما تُفسر بها "أصبح". وما المقامات التي استدعت "أصبح"، وكيف ألقت "أصبح" بظلالها على السياق، حتى شابه منها معنى لا تؤديه غيرُها؟

أسئلة أستفتح مناقشتها بإيجاز القول في "أصبح" عند النحاة، ثم التوجيه الذي تنتظم فيه النكات البلاغية للتعبير بـ: "أصبح" في مقاماتها، ثم أُفصِّل القول في مقامات "أصبح" مكتفياً بعرض السياقات، وما يتصل بصلب أسئلة البحث من دلالات وإشارات.

أولاً: "أصبح" بين اللغويين والنحاة

١. الدلالة المعجمية لـ:"أصبح":

أصلُ "أصبح" الصاد والباء والحاء، وهو (أصلٌ واحدٌ مطرد، وهو لون من الألوان. قالوا: أصله الحُمرة)،[٣] وقال الأزهري: (قَالَ اللَّيْث: الصَّبَح: شدَّة الحُمرة فِي الشَّعَر... وَمِنْه صُبْحُ النَّهارِ مُشْتَقٌّ من الأَصْبَح).[٤] ولكن دلالة الزمن تغلبت على دلالة اللون، فالاستعمالات المتفرعة عن دلالة الزمن أكثرُ من الاستعمالات المتفرعة عن دلالة اللون. ومما تفرع عن دلالة الزمن: الصَّبوح لكل ما أُكل أو شُرب بالغداة، والصَّبْحة بمعنى الرَّقدة، والمصباح للناقة التي لا تبرح مبركها حتى يرتفع النهار، والصباح بمعنى الغارة وقولهم في الإنذار بالغارة: يَا صَبَاحَاه... "وقول الله جلّ وعزّ: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾[٥] أَي: أخذتهم الهَلَكَةُ وَقت دُخُولهمْ فِي الصَّباح"، وقولهم للنائم: أَصْبِح بمعنى انتبه؛ أما المعاني التي ترتبط باللون فلا تكاد تتجاوز الصَّبَح بمعنى شدَّة الحُمرة فِي الشَّعَر، والصَّبِيحُ: الوضيء الْوَجْه، والصَّبَحُ: بَرِيقُ الْحَدِيدِ وَغَيْرِهِ،[٦] ويجوز حمل المصباح -بمعنى السراج- على الوجهين.

وأيًّا ما كان؛ فإن الدلالتين حاضرتان في الاستعمال الأشهر، وهو "أول النهار"، ولا تنسحب كلُّ دلالات الأصل على ما تفرع عنه من استعمالات، فالعلاقة تُثبت معنىً والقرينة تَمنع آخر، والمهم أن

نضع أيدينا على المتبادر إلى الذهن من معنى اللفظ، لنَحُدَّ به حقيقته، ونضبط مجازاته؛ لأن المعاني تتمحور حول اللفظ في دوائر متوالية، يوضح مراتبها تقديم المحسوس على المعنوي، والظاهر على المتأوّل، والشائع على النادر، والمتصرف على الجامد، إلا أن أظهر علامات الحقيقة التبادر إلى الذهن، قال الرازي: (ومن شأن الحقيقة المبادرة إلى الفهم)،[٧] وقال ابن قدامة: (ويستدل على معرفة الحقيقة من المجاز بشيئين: أحدهما: أن يكون أحد المعنيين يسبق إلى الفهم من غير قرينة، والآخر لا يفهم إلا بقرينة... الثاني: أن يصح الاشتقاق من أحد اللفظين).[٨] ولا شكَ أن المتبادر إلى الذهن من الإصباح وما شاكله: دلالة الزمن الذي هو أول النهار.

وتتقارب دلالات "صَبَح" و"أصبح" و"صبَّح"، فكلها أفعال تقارب زمن الصبح بوجه من الوجوه اقتضته دلالة الوزن أو غلبة الاستعمال، قال الأزهري: (قال سيبويه: أَصْبَحْنا وأَمْسَيْنَا أَي: صِرْنا في حِين ذَاك، وَأما صَبَّحْنَا ومَسَّيْنا فَمَعْنَاه أَتَيْنَاهُ صَبَاحاً وَمَساءً[٩]. وَقَالَ شمر: قَالَ أَبُو عدنان: الفرقُ بَين صَبَّحنَا وصَبَحْنَا أَنه يُقَال: صبَّحْنَا بَلَدَ كَذَا وَكَذَا، وصَبَّحْنَا فُلاَناً، فَهَذِهِ مُشَدّدَة، وصَبَحْنَا أَهلهَا خَيْراً أَو شَرّاً، وَأنْشد:

صَبَحْناهُم هِنْدِيَّةً بأُكُفِّنا محرّبةً تذري سَوَاعِدُهُم صُعْدَا).[١٠]

وعلى هذا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ﴾،[١١] فإنه أسند التصبيح إلى العذاب.

وتحرير الفروق في ضوء معاني الأبنية يعيدنا إلى البحث في الفرق بين التعدية بالهمز وبالتضعيف؛ لأن "صَبَح" مجردٌ، و"أصبح" مهموز، و"صبّح" مضعفٌ، وهذه المسألة مبثوثة في مدونات التفسير؛ حيث تعاقب على المتشابه من السياقات المهموز والمضعف: ﴿أَنْزَلْنَا﴾ و ﴿نَزَّلْنَا﴾ أو ﴿أَنْجَيْنَا﴾ و ﴿نَجَّيْنَا﴾، وفي كتب اللغة حيث يُناقش لزوم الأفعال وتعديها. وهي وإن كانت ليست عينَ ما نحن فيه، إلا أنها تفتح للنظر فيه باباً، ويمكن إجمال مذاهب العلماء في الفرق بين التعدية بالهمز والتضعيف في أربعة أقوال: الأول أن التضعيف يدل على تقوية الفعل إما في كميته أو كيفيته، والهمز لمطلق التعدية، وبه قال الزمخشري وتابعه البيضاوي[١٢]، ففي قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾[١٣] قال الزمخشري: (فإن قلت: لم قيل: ﴿مِمَّا نَزَّلْنَا﴾ على لفظ التنزيل دون الإنزال؟ قلت: لأن المراد النزول على سبيل التدريج والتنجيم، وهو من مَحازِّه لمكان التحدي).[١٤] والثاني ترادف التعدية بالتضعيف والهمز، وهو قول الجمهور،[١٥] وانتصر له أبو حيان، واعترض على قول الزمخشري بأن دلالة التكثير إنما تكون حيث لا يُغير التضعيف في لزومه وتعديه؛ أي ما كان متعديًا قبل التضعيف وهو كثير أو ما بقي لازماً بعده وهو قليل؛ فأما ما انتقل بالتضعيف عن اللزوم إلى التعدية فلا يدل تضعيفه على التكثير؛ قال في ﴿نَزَّلْنَا﴾: (التضعيف فيه هنا للنقل، وهو المرادف لهمزة النقل. ويدل على مرادفتهما في هذه الآية قراءة يزيد بن قطيب: ﴿مِمَّا أَنْزَلْنَا﴾ بالهمزة)، ثم شرح دلالة التكثير ومنع اجتماعها مع الدلالة

على تعدية اللازم؛ قال: (فيكون التعدي المستفاد من التضعيف دليلاً على أنه للنقل لا للتكثير؛ إذ لو كان للتكثير وقد دخل على اللازم بقي لازما، نحو: مات المال، وموت المال). وتبعه الحلبي، واستدل بورود (التضعيف حيث لا يمكنُ فيه التكثيرُ نحو قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ﴾[١٦] و﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السمآء مَلَكاً رَّسُولاً﴾[١٧] إلاَّ بتأويل بعيدٍ جداً).[١٨] وقال: (ولا يَصِحُّ ان يكونَ التضعيفُ للتكثير؛ إذ من شرطِه أن يكون متعدياً قبل ذلك)،[١٩] وهذا على الغالب كما تقدم، وتحريره أن يقال: شرط دلالة التكثير عدم الانتقال بالتضعيف من اللزوم إلى التعدية، فإذا أفاد التعدية فالهمز والتضعيف مترادفان، وتعاورهما جمعٌ بين اللغات، قال الحلبي: (والأظهرُ من ذلك كلِّه أنه جَمْعٌ بين اللغات).[٢٠]

وتابع الطاهرُ أبا حيان في التسوية بين التعدية بالتضعيف وبالهمز، إلا أنه يجوّز حمل العدول إلى التضعيف على التكثير على سبيل القياس؛ حيث قال: (فأما إذا كان فعل المضاعف للتعدية فإن إفادته التكثير مختلف فيها، والتحقيق أن المتكلم قد يعدل عن تعدية الفعل بالهمزة إلى تعديته بالتضعيف لقصد الدلالة على التكثير؛ لأن المضاعف قد عرف بتلك الدلالة في حالة كونه فعلاً لازماً فمقارنته تلك الدلالة عند استعماله للتعدية مقارنة تبعية).[٢١]

وقال: (والتضعيف في نزل للتعدية فهو يساوي الهمز في أنزل، وإنما التضعيف يؤذن بقوة الفعل في كيفيته أو كميته، في الفعل المتعدي بغير التضعيف... فإما إذا صار التضعيف للتعدية فلا أوقن بأنه يدل على تقوية الفعل، إلا أن يقال: إن العدول عن التعدية بالهمز، إلى التعدية بالتضعيف، لقصد ما عهد في التضعيف من تقوية معنى الفعل).[٢٢]

والذي جوّزه الطاهر قياساً ولم يجزم به؛ ليس مجرد القول بإفادة التكثير، بل القول بإفادة المبالغة وتقوية المعنى إما في الكمية أو الكيفية، وفي هذا جواب عن ما اعترض به من شواهد لا تحتمل التكثير.

ثانياً التفريق في المدلول،[٢٣] وهو فرع عن القول بإفادة التضعيف تقوية الفعل، إذ مبناه على اعتبار أحد الوجهين –الهمز والتضعيف –أليق بأحد المدلولين، ومنه ما حكاه الحلبي: (وفَرَّقوا بين «عَلِم» العُرْفانيةِ واليقينيةِ في التعديةِ، فإذا أرادوا أن يُعَدُّوا العرفانيةَ عَدَّوْها بالتضعيف، وإذا أرادوا أن يُعَدُّوا اليقينيةَ عَدَّوْها بالهمزةِ، ذكر ذلك أبو علي الشلوبين)،[٢٤] ومثل هذا لا يطّرد؛ لأن مدلولات الفعل لا تنحصر في اثنين مطلقاً.

واستجلاء فروق الدلالة في "صَبَح" و"أَصْبَح" و"صَبَّح" خارج محل النزاع؛ لأنها ليست مما عُدِّي بالهمز والتضعيف على نسق (نَزَل – أَنْزَل – نَزَّل)، فـ: "صَبَح" و "صَبَّح" متعديان إلى مفعولين كما في الشواهد السابقة، و"أصبح" ناسخ لركني الجملة الاسمية، والناسخ قسم مستقل لا يندرج تحت اللازم ولا المتعدي؛ لأن (التعدي تجاوز الفعل فاعلَه إلى مفعول أو أكثر، فإن تعدى إلى غيره من المنصوبات لم يُسم متعدياً)،[٢٥] وعليه فلا يبعد حمل "صَبَّح" على المبالغة لما فيه من الدلالة على قوة الفعل في الكمية أو

الكيفية، والتفريق في المدلول الذي حكاه شمر فرغٌ عنه؛ وأما "أصبح" فصيغة مستقلة في وظيفتها النحوية ودلالتها السياقية.

٢. الدلالة الوظيفية لـ: "أصبح":

ترد "أصبح" في الكلام على وجهين: ناقصة وهي التي تفتقر إلى منصوب يحل من مرفوعها محل الخبر من المبتدأ، وتامة وهي التي تستغني بمرفوعها. قال سيبويه: (يكون أصبحَ وأَمسىَ مرّةً بمنزلة كان، ومرّةً بمنزلة قولك اسْتَيْقَظُوا ونامُوا).[٢٦]

ويُفرق بعض العلماء بين نوعين من "أصبح" الناقصة؛ أحدهما ملحقٌ بـ: "كان" والآخر ملحق بـ: "صار" على أن حكمهما في الصنعة الإعرابية واحد، ولذا تسمى كلها "أخوات كان".

قال الزمخشري: وأصبح وأمسى وأضحى على ثلاثة معانٍ: الأول أن يقرن مضمون الجملة بالأوقات الخاصة التي هي الصباح والمساء والضحى على طريقة "كان"، والثاني أن تفيد معنى الدخول في هذه الأوقات كأظهر وأعتم، وهي في هذا الوجه تامة يسكت على مرفوعه، والثالث أن يكون بمعنى صار كقولك: أصبح زيد غنياً وأمسى أميراً.[٢٧]

وأما "أصبح" التامة فبيّنة الدلالة والحكم، وهي التي في قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾،[٢٨] ومثلها في حكم التمام –لا دلالته– "صار" في قوله تعالى: ﴿صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾[٢٩]، فإنهما في الحكم تستغنيان بالمرفوع؛ أمّا في الدلالة فتتخلص كلٌّ لأصل دلالة معناها المعجمي؛ أما "أصبح" الملحقة بـ: "كان" فهي الدالة على إسناد منصوبها إلى مرفوعها مقيداً بدلالة الزمن، والملحقة بـ: "صار" هي الدالة صيرورة مرفوعها إلى منصوبها، ودلالة الزمن فيه مهملة، فهي لمطلق الانتقال من حال إلى حال، مثل صار التي هي لمطلق "المآل والمرجع"،[٣٠] على ما يظهر من كلام النحاة. والصيرورة ليست على وجه واحد، وعلى هذا فرّق الرازي بين العبارات الدالة على الصيرورة تفريقاً حقيقاً بالدراسة والبحث، يقول الرازي: (لا بدَّ في اختلاف الألفاظ من اختلاف المعاني واختلاف الفوائد، فنقول: الصيرورة قد تكون من ابتداء أمر وتدوم، وقد تكون في آخر بمعنى آل الأمر إليه، وقد تكون متوسطة، مثال الأول: قول القائل: صار الطفل فاهماً؛ أي أخذ فيه وهو في الزيادة، ومثال الثاني: قول القائل: صار الحق بيناً واجباً؛ أي انتهى حده وأخذ حقه، ومثال الثالث: قول القائل: صار زيد عالماً وقويًّا؛ إذا لم يرد أخذه فيه، ولا بلوغه نهايته بل كونه متلبسًا به متصفًا به، فإذا علمت هذا فأصل استعمال أصبح فيما يصير الشيء آخذاً في وصف ومبتدئاً في أمر، وأصل أمسى فيما يصير الشيء بالغاً في الوصف نهايته، وأصل أضحى التوسط. لا يقال: أهل الاستعمال لا يفرقون بين الأمور ويستعملون الألفاظ الثلاثة بمعنى واحد، نقول إذا تقاربت المعاني جاز الاستعمال، وجواز الاستعمال لا ينافي الأصل، وكثير من الألفاظ أصله مضى واستعمل

استعمالاً شائعاً فيما لا يشاركه، إذا علم هذا فنقول قوله تعالى: ﴿فَتُصْبِحُوا﴾[٣١] أي: فتصيروا آخذين في الندم متلبسين به ثم تستديمونه، وكذلك في قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوانًا﴾[٣٢] أي: أخذتم في الأخوة وأنتم فيها زائدون ومستمرون، وفي الجملة اختار في القرآن هذه اللفظة؛ لأن الأمر المقرون به هذه اللفظة؛ إمَّا في الثواب أو في العقاب وكلاهما في الزيادة، ولا نهاية للأمور الإلهية).[٣٣]

وهذا النص يضع أمام الباحث فرضيتين: الأولى التفريق بين أصبح وما يقاربها على نحو ما ذكر في اختلاف أوجه الصيرورة، وما يلحق هذه الفرضية من وقوع استعماله في كلامهم على خلاف الأصل تجوزاً، والثانية: أن اختصاص "أصبح" بمقاماتها في القرآن، واطرادها دون "أمسى" و "أضحى" في مقامات الصيرورة، إنما هو فرع عما قبله، وذلك أن مقاماتها مقامات ثواب وعقاب، والثواب والعقاب مما هو آخذٌ في الزيادة. وكلامه هذا حقيق بدراسة مطولة لمقارنة مقامات الألفاظ الثلاثة في الشعر الجاهلي، ثم في السنة النبوية؛ أمّا في القرآن فتكاد تغيب "أمسى" و"أضحى" بمعنى الصيرورة، وتحضر "أصبح" حضوراً كثيفاً، يعلله الرازي بما تقدم، وهو تعليل لم ينظر فيه إلاَّ إلى كيفية الصيرورة، وإن كانت هذه الكيفية مستفادة من الدلالة المعجمية؛ لأن "أصبح" أول الأوقات الثلاثة وأولاها بالاستمرار والتنامي، و"أمسى" آخرها وأحقها بالاستقرار والانتهاء، و"أضحى" بين الوقتين.

ويبقى السؤال الذي تتمحور حوله الدراسة: هل تتجرد "أصبح" من دلالتها المعجمية إذا جاءت بمعنى "صار"؟ أم يكون الإصباح مجازاً لمشابهة الحال بالحال، فيكون لفظ "أصبح" مستعارًا لتحول مما يشبه البيات كالغفلة والموت أو إلى ما يشبه انفلاق الصبح كاليقظة والبعث. وهل يصرفنا إطلاق القول بتأويل "أصبح" بمعنى "صار" عن التماس هذه الإشارات؟ وإذا كانت "أصبح" ليست إلا "صار" فلماذا عدل السياق إليها؟ وقبل أن نخوض في سياقات "أصبح" نقف على أصل عام في دلالتها، تتفرع عنه إشاراتها، التي تقدحها القرائن تارة، وتطويها أخرى بحسب ما يقتضيه المقام.

٣. دلالة "أصبح" وإشاراتها:

تقدم بيان معنى لفظ "صبح" الذي يتردد بين وقت أول النهار، ولون الحمرة الذي يكسو وجه النهار، وأن ساعة الإصباح هي المتبادر إلى الذهن في كثير من الألفاظ المشتقة من هذا الأصل، على أن مردّ الإصباح عند اللغويين إلى اللون المشار إليه، و"أصبح" على إطلاقها لا تندُّ عن هذا الحكم، فالمتبادر منها ما يرتبط بأول النهار، من الدخول فيه أو تقييد الحكم به، إلاّ أن الاستعمال الملحق بـ: "صار" مجردٌ في ظاهر عبارة بعض المفسرين من دلالة "الصبح"، قال القرطبي: (وَكُلُّ مَا فِي القرآن ﴿فَأَصْبَحْتُمْ﴾ مَعْنَاهُ: صِرْتُمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ أَصْبَحَ ماؤُكُمْ غَوْرًا﴾[٣٤] أَيْ: صَارَ غَائِرًا).[٣٥]

وفي مقابل هذا الإطلاق، نجدُ البقاعي يقتنص لفتةً بديعةً في قوله تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[٣٦] قال: (﴿فَأَصْبَحَ﴾ أي: فكان في كل زمن ﴿مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

أي: العريقين في صفة الخسران بغضب الله عليه لاجترائه على إفساده مصنوعَه، وغضب أبناء جنسه عليه لاجترائه على أحدهم، وعبَّر بالإصباح والمراد جميع الأوقات؛ لأن الصباح محل توقع الارتياح).[٣٧]

فالبقاعي هنا يستحضر دلالة "أصبح" على أول النهار إلى جوار دلالتها على الصيرورة، وكأن دلالة الزمن حاضرة في "أصبح" الملحقة بـ: "صار" حضوراً دون حضورها في الملحقة بـ: "كان"؛ لأن دلالة الزمن في الأولى أشبه بدلالة التضمن، وفي الثانية بدلالة اللزوم، وفي التامة بدلالة المطابقة، أقول أشبه؛ لأن تدرج الدلالات الثلاثة في القوة يشبه تفاوت حضور معنى الزمن المخصوص في الاستعمالات الثلاثة. واللزوم أبعدُ الدلالات عن لاحب السياق؛ لأنه مستتبع من جهة، ولأن الالتزام أخفى من المطابقة والتضمن، بل قد يخرج إلى حدِّ الإشارة أحياناً، والحاصل أنه حيث وردت "أصبح" فمعنى الصبح حاضر في طيها، من قريب أو بعيد، ودلالةُ الصبح على توقع الخير؛ لأنه وقت الرزق والربح، ووقت حركة الناس وانتشارهم، ووقت النضح والسقي والجَنْي؛ تصبغ مشهد الخسران بلون تمتزج فيه الحسرة بالغبن، ولو وقفنا بها عند حدود الانتقال من حال إلى حال لأطفأنا هذه الإشارات الحية التي تثري المعنى وتملأ السياق.

والبقاعي حفيٌّ باقتناص مثل هذه اللفتات في "أصبح" التي سيقت –عنده– للتعبير عن مطلق الصيرورة، فكان وراء العدول إليها نكتةٌ ولا بد، ولا شك أن الركونَ إلى تفسير "أصبح" بما يشاركها في معناها العام من الصيغ المقاربة لها وظيفةً ودلالة، وإغفالَ خصوصياتها الدلالية؛ لاشك أنه (يعزل البلاغةَ عن سلطانها، ويخْفِضُ من شأنها، ويَصُدُّ أوجُهَنا عن محاسنها، ويسد باب المعرفة وبلطائفها علينا)،[٣٨] كما يقول عبد القاهر في نظائره، وعبارات المفسرين التي تنص على أنها بمعنى "صار"، إنما تُحمل على التقريب وإيضاح المعنى العام للتركيب؛ أمّا أن تكون بياناً لدلالة التركيب، فضلاً عن تتبع حركة المعنى في إشاراته، فهذا هو محل الإشكال.

والسؤال الذي ينتظم في سلكه البحثُ عن أثر "أصبح" في سياقاتها: هل استعيرت "أصبح" للصيرورة لتشي بشيء من حمولات اللفظ، تشبيهاً للحال التي طوتها بالظلام الذي يطويه الصبح، ليكسوه من حلل الظلام ما يليق بالسياق من جهالة أو غفلة أو عدم أو سواد أو تشبيهًا للمآل بالنور الذي انفلق عنه الصبح ليكسوه من معاني الانشراح والبهاء والجلاء والحياة أو هو مجاز عنهما معاً ينتزع من هذا وهذا صورة مركبة يستعيرها السياق لصيرورة مشحونة بالمعاني؟!

كل هذه المسالك لحركة المعنى؛ ننثرها بين مقامات "أصبح"، ونستعين بملابسات السياق لنتخير أليقها بكل مقام، لعلنا نظفر بلطائف وإشارات ترتقي بنا في معارج التدبر، وتغوص بنا في أعماق المعنى، وتنقلنا إلى جوِّ السياق وحركة المعنى وفيض اللغة.

٤. مقامات "أصبح":

وردت "أصبح" في القرآن في ثمانية وعشرين موضعاً، من أصل ثمانية وثلاثين موضعاً وردت فيها مشتقات "صبح" كالصبح ومُصبحين وصبَّحهم، وهي في الثمانية وعشرين موضعاً ناقصةٌ إلا في قوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾،[٣٩] وغالباً ما تسدل الستار على مشهد، وتستفتح مشهدًا جديدًا، وقد توالت أربعة مواضع منها في سياق واحد في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالا وَوَلَدًا ◊ فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ◊ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ◊ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ◊ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا ◊ هُنَالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ◊ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا.﴾[٤٠]

وعلى تقارب مقاماتها إلا أننا نُفصلها على أقرب ما تتيحه لنا مقاصد الكلام من وحدات موضوعية، على النحو الآتي:

أ. **مقام إسفار النعم:** الصيرورة إلى النعمة فيه ملمح إصباح، ففي الصبح تدبُّ الحياة بعد سكون، وتملأ الحواسَّ، وتغدو الطيرُ، ويتفتح الزهرُ، ويسعى الناس، وتتجدد الأرزاق، وألوان هذا المشهد البهيج تملأ صورة الإنعام في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾؛[٤١] إذ يذكر الله عباده المؤمنين في هذه الآية بما امتن به عليهم من الألفة والأخوة، بعد أن كانوا في جاهليتهم أعداء يقتل بعضهم بعضًا كما قال زهير:

وَمَنْ لا يَذُدْ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلاحِهِ يُهَدَّمْ وَمَنْ لا يَظْلِمِ النَّاسَ يُظْلَمِ[٤٢]

فآل حالهم إلى ألفة بعد فرقة، وأُخوّة بعد عداوة، وإيثار بعد أثرة.

قال الكرماني في الغرائب: (﴿فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ (أي: صرتم، والضمير اسم أصبح، و﴿إِخْوَانًا﴾ خبره، ويجوز أن يكون "أصبح" أي: دخل في الصباح و﴿إِخْوَانًا﴾ حالٌ وهو الغريب)،[٤٣] واعترض القنوجي على الوجه الثاني فقال: (ومعنى أصبحتم: صرتم، وليس المراد به معناه الأصلي وهو الدخول في وقت الصباح).[٤٤]وظاهرٌ أن الحمل عليه لا يكون إلاّ على سبيل المجاز؛ لأن ظرف الانتقال أوسع من المدى الزمني الذي يكتنف الإصباح، فإنَّ تحقُّق إسناد الحكم إلى المجموع لا يكون في ليلة، إنما تتابع وتراكم حتى تمَّ وظهرت النعمة وتجلت المنة، فطوى السياق كلَّ ذلك طيَّ الليلة المظلمة، واستفتح المآل بإشراقة عهد جديد.

وفي مقام الامتنان بالنعم يقول جلَّ شأنه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾.[٤٥]

قال ابن عطية: (وقوله ﴿فَتُصْبِحُ الأَرْضُ﴾ بمنزلة قوله: فتضحي أو فتصير، عبارة عن استعجالها أثر نزول الماء واستمرارها كذلك عادة)؛[٤٦] أي أن التعبير عن الصيرورة بالإصباح لا على معنى الدخول في الوقت المخصوص الذي هو حقيقة اللفظ، وليس معزولاً عن دلالته بالكلية، بل فيه إشارة إلى سرعة التحول، وأنه بمنزلة طي الليلة، وأن هذا الذي يحصل بسرعة إنما هو بدء الاخضرار، ثم يستمر ويتزايد حتى يكتمل، قال: (وروي عن عكرمة أنه قال: هذا لا يكون إلا بمكة وتهامة، ومعنى هذا أنه أخذ قوله ﴿فَتُصْبِحُ﴾ مقصودًا به صباح ليلة المطر، وذهب إلى أن ذلك الاخضرار في سائر البلاد يتأخر)، وعلى هذا الوجه يكون الإصباح في الآية على حقيقته، قال: (وقد شاهدت هذا في السوس الأقصى: نزل المطر بعد قحط، وأصبحت تلك الأرض التي تسقيها الرياح قد اخضرت بنبات ضعيف دقيق)؛ فهما وجهان إذن، الأول: على الإلحاق بـ: "صار"، والثاني على الإبقاء على أصل اللفظ مخصوصاً بما يصدق عليه من أحوال الإنبات في بعض البقاع. قال الآلوسي: (والأول أولى)؛[٤٧] لأنه أوفى بالمقام وأبلغ إلى مقاصد الكلام، فهو غير مختص بمكان أو زمان، وهذا يجعل المعنى أظهر وأعمَّ وأليق بسياق بيان دلائل الربوبية والامتنان بالنعم، على أن ما اختص بعُرف أهل الخطاب الأول وملابسات النزول؛ لا يحدُّه عن عموم لفظه خصوصُ سببه.

وقد استوقف الزمخشريَّ التعبيرُ بالإصباح بصيغة المضارعة مغايراً لما عُطف عليه، وعلّله بأن في المضارعة نكتة (وهي إفادة بقاء أثر المطر زماناً بعد زمان، كما تقول: أنعم عليّ فلان عام كذا، فأروح وأغدو شاكراً له. ولو قلت: فرحت وغدوت، لم يقع ذلك الموقع)،[٤٨] فالاخضرار يستمر ويتجدد، ونزول المطر الذي يقع مرة يعقبه نموٌ متتابع للنبات. قال أبو السعود: (وإيثار صيغةَ الاستقبالِ للإشعارِ بتجدُّدِ أثرِ الإنزالِ واستمرارِه أو لاستحضارِ صورةِ الاخضرارِ).[٤٩]والوجه الثاني هو الذي علَّل به الزمخشريُّ العدول إلى المضارعة في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾،[٥٠] قال: (ليحكي الحال التي تقع فيها إثارة الرياح السحاب، وتستحضر تلك الصور البديعة الدالة على القدرة الربانية) وهذا شأن العرب في كلِّ فعل فيه نوع تمييز خصوصية بحال يستغرب أو يتهم المخاطب أو غير ذلك، كما قال تأبط شرّاً:

بِأَنِّي قَدْ لَقِيتُ الْغُولَ تَهْوِي بِسَهْبٍ كَالصَّحِيفَةِ صَحْصَحَانِ

فَأَضْرِبُهَا بـ: لا دهش فَخَرَّتْ صَرِيعًا لِلْيَدَيْنِ وَلِلْجِرَانِ[٥١]

لأنه قصد أن يصوّر لقومه الحالة التي تشجع فيها بزعمه على ضرب الغول، كأنه يُبصِّرهم إيّاها ويُطلعهم على كنهها، مشاهدة للتعجيب من جرأته على كل هول، وثباته عند كل شدّة).[٥٢]

قال الآلوسي: (وهو إنما ينتحي فيما تكون العناية فيه أقوى)،[٥٣] فإن الصورة التي استأثرت بالعدول إلى عما استقر عليه السياق إنما سيقت هكذا؛ لأنها محل عناية المتكلم، ومثار عجب المخاطب، ولا يصح أن نغفل كلَّ هذا ونقف على حدود الصنعة الإعرابية اللفظية في قول أبي البقاء: (ويجوز أن يكون ﴿فَتُصْبِحُ﴾ بمعنى أصبحت، وهو معطوف على ﴿أَنزَلَ﴾ فلا موضع له إذًا).[٥٤]

وفي مقام الامتنان يقول تبارك وتعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾.[٥٥] قال البقاعي: (ولما كان الظفر بالمحبوب أحبَّ ما يكون إذا كان أول النهار، تسبب عن تأييده قوله: ﴿فَأَصْبَحُوا﴾؛ أي: صاروا -بعد ما كانوا فيه من الذلّ-﴿ظَاهِرِينَ﴾).[٥٦]

وعدَّ الكرماني في الغرائب ما روي عن ابن عباس -رضي الله عنهما -قال: (قاتلوا ليلاً فأصبحوا ظاهرين غالبين)،[٥٧] فإنَّ حمل "أصبح" في هذه الآية على معنى الدخول في الصبح لا نكاد نجده لدى المفسرين، ولم أقف عليه إلاّ في الغرائب، والأول أظهر لانسجامه مع عموم اللفظ، واتساقه مع وجهي الظهور اللذين أوردهما جمهور المفسرين في هذه الآية، وهما: الغلبة بالقتال، والاستعلاء بالحجة بظهور مُحَمَّد وتصديقه عيسى عليهما السلام.[٥٨]

ب. مقام جلاء الحقائق: أقسم الله بالصبح إذا أسفر: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾،[٥٩] قال الأزهري: أسفَر الصبحُ: إِذا أضاءَ إِضاءةً لا يُشكّ فِيهِ، وإِنما قيل للكتبة سفرة وللكتب أسفار لأن مَعْنَاهُ أَن يبيّن الشيءَ ويوضِحه، وَإِذا ألقَت المرأةُ نِقَابها قيل: سفَرتْ.[٦٠] قال ابن فارس: (السين والفاء والراء أصل واحد يدل على الانكشاف والجلاء).[٦١]

ولحظة انجلاء الحقيقة وتبدد الوهم تشبه لحظة انفلاق الصبح، وبها تُشبه الحقيقةُ التي لا مرية فيها، وقد جاء في وصف رؤاه ﷺ: (كَانَ لاَ يَرَى رُؤْيَا إِلاَّ جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ)،[٦٢] وفَلق الصبح وفَرقه: ضياؤه؛ لأن عمود الصبح ينفلق في ظلمة الفجر فيفلق الليل ويفرقه.[٦٣]

وصيرورة الأمر إلى منتهاه؛ حيث تستقر مآلاته، وتتبين معالمه، وينكشف قناع الملابسات والدعاوى، ويسطع برهان الحقيقة الحاضرة مُبدداً أوهام المرتقبين؛ تلك النقلة من حال إلى حالٍ تُشبه الإصباح حين يفلق ضياؤه الظلمة فيتجلى المشهد تحت نور الصبح الذي ينساب في كل التفاصيل. وفي هذا المقام يقول الحق تبارك وتعالى مبيّناً ما آل إليه أمر مَن كان قبلنا حين تعنتوا في طلب الآيات، وألَحُّوا في استظهار الحجج، وتمادوا فيما توهموه تعجيزاً للرسل؛ فلما جاءتهم الآيات البينات على ما سألوا إذا هم يكفرون وينكرون: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾.[٦٤] سألها قوم صالح فلما جاءتهم الناقة مبصرةً عقروها إمعاناً في الكفر، وسألها قوم موسى فقالوا: أرنا الله جهرة، ثم نكصوا

واتخذوا العجل، وسأل بنو إسرائيل عيسى أن يُنزل عليهم مائدة من السماء ثم عَمُوا وصَمُّوا كثيرٌ منهم.[٦٥]

والإصباح والكفر أشبه بالنقيضين، قال الراغب: (الكُفْرُ في اللّغة: ستر الشيء، ووصف الليل بِالْكَافِرِ لستره الأشخاص)،[٦٦] واقترانهما في السياق يثير من العجب ما يناسب غرابة ما آل إليه التكذيب بعد السؤال، وهو ما تفيده (ثم) التي سيقت (للترتيب الرتبي -كشأنها في عطف الجمل- فإنها لا تفيد فيه تراخي الزمان، وإنما تفيد تراخي مضمون الجملة المعطوفة في تصور المتكلم عن تصور مضمون الجملة المعطوف عليها)،[٦٧] كما إن تقديم متعلق الكفر (بها) وهي الآية التي سألوها يُؤكد هذا المعنى، وكأننا نقف على شرفة صبحٍ كشف ضياؤه عناد المعرضين ومغالطة المماريين، وما انطوت عليه تلك النفوس المعرضة عن الحق من تبييت الكفر وإضماره، حتى تبددت الشبهات وانقطعت الأراجيف فاستقر كل فريق تحت رايته.

وفي مثل هذا المقام يعرض السياق مشهداً امتلأت العيون ببريق زخرفه، ولم تنفذ البصائر إلى حقيقة مآلاته؛ يعرضه مثلاً لحقيقة كبرى يحول بينها وبين البصائر ركامٌ من الزينة الفانية. ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾.[٦٨] والآية جاءت عقب سياق تكررت فيه "أصبح" على نحو لا نظير له في القرآن الكريم، يقول تعالى في قصة صاحب الجنتين الذي اغتر بما استدرج به حتى أحاط به ما حُذر منه: ﴿وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالا وَوَلَدًا ◊ فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ◊ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ◊ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ◊ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا ◊ هُنَالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ◊ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾[٦٩].

و"أصبح" في هذا السياق تتسق مع مقام جلاء الحقيقة، وهي أشبه به وإن داخلها مقتضيات غيره، فالنكات لا تتزاحم، والرابط بين هذه المواضع أن "أصبح" فيها تنقلنا إلى مآل الأمر، وتكشف ما كان يحفُّه من زخرف، فالجنتان كالدنيا تتزينان لصاحبهما حتى يغتر ويتمادى، ويظن أنه قادر عليها، ويغيب عنه —حتى يُنكِر- أنها عَرَض قد يزول بين عشية وضحاها، ويؤول إلى خبر يروى كأن لم يكن عيناً تُرى، وهذا الدفق الذي تبعثه "أصبح" في هذا السياق هو الذي يطويه سياق آخر في كلمة "الأمس" التي وإن اتسعت دلالتها بالتعريف، إلا أن أحاسيس طي الليلة مكنونة في إشاراتها، يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ

الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.[٧٠]

وفي مآل من ساء فعله لسوء ظنه، وغفلته عن ربه، يقول تعالى: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾،[٧١] وإنما يكون هذا الخسران في الآخرة، كما يفيد السياق، ولذا قال الطبري في معنى الآية: (وهذا الذي كان منكم في الدنيا من ظنكم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون من قبائح أعمالكم ومساويها، هو ظنكم الذي ظننتم بربكم في الدنيا)،[٧٢] فالظن في الدنيا، وتبيّن الخسران في الآخرة، وعليه فالإصباح هنا لمطلق الصيرورة، يقول البقاعي: (وصوره بأقبح صورة وهو الصباح، فالمعنى أنه إذا صار حالكم حال من أصبح كذلك لم يكن للربح وقت يتدارك فيه بخلاف ما لو وجد ذلك عند المساء فإنه كان ينتظر الصباح للسعي في الربح، ويوم القيامة لا يوم بعده يسعى فيه للربح).[٧٣] وفي مثله يقول تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾.[٧٤] قال البقاعي: (وعبر بالإصباح لأنه لا أقبح من مصابحة السوء، لما في ذلك من البغتة بخلاف ما ينتظر ويؤمل).[٧٥]

وفي مقام انكشاف المآلات وتبين الحقائق يقول تعالى في قصة قارون وما آل إليه بعد الخسف، وكيف تملك العجب أولئك الذي فتنوا بما كان فيه من الثراء: ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾،[٧٦] قال البقاعي: ﴿وَأَصْبَحَ﴾: (وصار، ولكنه عُبر به لمقابلة الأمس، وإعلاماً بأن ما رأوا من حاله ملأ صدورهم فلم يكن لهم همٌّ سواه).[٧٧]

ج. **مقام سهاد الكرب والخوف:** معجم الصبح والليل في الشعر ثريٌّ بالدلالات والإشارات، ولا سيما في مقام طي الليل المثقل بالهموم والأوجاع والمخاوف، فامرؤ القيس يطارد ليل همومه، ثم يطفئ بارقة الأمل بأن صبحه وليله سواء على خلاف ما استقر في عرف الناس:

ألا أيها الليلُ الطويلُ، ألا انجلي بصبحٍ، وما الإصباح فيك بأمثلِ[٧٨]

وشكوى طول الليل مما توارد عليه الشعراء في كل عصر، حتى صار من المطروح في الطريق، إلا أن يفتنّ الشاعر في تصويره فيخرج به عن ابتذال الإلف، كقول النابغة:

كليني لهمٍّ يا أميمة ناصبِ وليل أقاسيه بطيء الكواكبِ

تطاول حتى قلتُ ليس بمنقضٍ وليس الذي يرعى النجومَ بآيبِ[٧٩]

والنابغة سيدٌ في هذا الباب، وقد عانى من كرب وعيد النعمان ما عانى، حتى تخيله كالليل الذي لا بد أن يدركه، ومما يستجاد له فيه قوله:

فبِتُّ كأني ساورتني ضَئِيلةٌ مِن الرُّقْشِ في أنيابها السمُّ ناقِعُ[٨٠]

ثم استرسل في وصف الحية التي ساورته، ووصف سمها، وحال لديغها، ليرسم بهذه القصية الموجعة صورة ليله المكبل بالغم والكرب. ومما يستجاد في هذا الباب قول بشار:

خليليّ ما بال الدجى لا تزحزح ... وما لعمود الصبح لا يتوضح
أضلَّ النهارُ المستنير طريقه ... أم الدهر ليل كله ليس يبرح
وطال عليّ الليل حتى كأنه ... بليلين موصول فما يتزحزح[٨١]

وحين نستعرض مقامات "أصبح" نجدها أحياناً تطوي في السياق ليلةً مليئة بالحزن والهمّ والخوف، وبهذا تملأ "أصبح" جزءاً من القصة طواه السياق ولم يغفله، بل نثر آثاره على المشهد الحاضر حين عبر عن الصيرورة بالإصباح، يقول تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا﴾،[٨٢] قال الطبري: أي صار قلبها فارغاً من كل شيء إلا من هَمِّ موسى، وقد ذُكر عن فضالة بن عبيد أنه كان يقرؤه: {وأصبح فؤاد أم موسى فازعًا} من الفزع.[٨٣]

وكلام الزمخشري يوحي بحمل "أصبح" على معنى الصيرورة؛ لأنه لا يخصه بليلة الفراق، بل يعلقه بسماع خبر وقوعه في يد فرعون، قال: (والمعنى: أنها حين سمعت بوقوعه في يد فرعون طار عقلها لما دهمها من فرط الجزع والدهش)،[٨٤] وبه صرح ابن عطية فقال: (وقوله ﴿وَأَصْبَحَ﴾ عبارة عن دوام الحال واستقرارها وهي كظَلَّ، ومنه قول أبي سفيان للعباس يوم الفتح: "لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيما يريد استقرت حاله عظيما")،[٨٥] وعليه أكثر المفسرين،[٨٦] إلاَّ أن البقاعي حمل الإصباح في الآية على ظاهره، فقال في معنى ﴿وَأَصْبَحَ﴾؛ (أي: عقب الليلة التي حصل فيها فراقه... وهذا يدل على أنها ألقته ليلاً).[٨٧]

والأول أولى؛ لأنه يستوعب الثاني دون العكس، ولموقع الآية من السياق فإن ذِكر فراغ قلبها لم يأت عقب الإلقاء، وإنما بعد التقاطه، وتلاه بعث أخته في أثره، فكأنه كان منتهى ما توالى عليها من الخوف عليه ثم إلقائه ثم التقاط آل فرعون له إن كان نمى إلى علمها قبل أن تَقص أختُه أثره.

ونظير هذا المقام من السورة نفسها قوله تعالى حكاية عن حال موسى بعد أن قتل رجلاً من آل فرعون: ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾.[٨٨]

والأقرب أن "أصبح" في هذه الآية على ظاهرها لأن السياق يسرد أحداثاً متوالية يربط بينها بالفاء، ويقرن "أصبح" بـ: "الأمس": ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ◊ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾،[٨٩] يقول الرازي: (أصبح موسى عليه السلام من غد ذلك اليوم خائفًا من أن يظهر أنه هو القاتل فيطلب به).[٩٠]

وجوّز القرطبي الوجهين، فقال: (يحتمل أن يكون بمعنى صار، أي: لما قتل صار خائفًا. ويحتمل أن يكون دخل في الصباح، أي: في صباح اليوم الذي يلي يومه)،[٩١] ولا شك أن حضور دلالة "الصبح" على الوجهين توحي بحال موسى الخائف المترقب، وكأن الليل كان كنًّا يستره عن العيون، فلما كاشفه نور الصبح، وأنفاسُ الناس، والتفات العيون، وهمس الأصوات، وكلُّ ما كان في كنِّ الليل ساكنًا فحركه الصبح؛ تملكته الرهبة والترقب.

د.مقام فجاءة النقمة: من سنن الله في هلاك الظالمين أن يحقَّ القول وينزل العذاب وهم سادرون في غفلتهم ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾،[٩٢] يبغتهم الوعد الذي كذبوا بهم وأعرضوا عنه فيطوي ليلتهم بالهلاك، فإذا أصبحوا أصبحوا حصيداً خامدين، كأن لم يغنوا بالأمس ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ◊ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾،[٩٣] وفي قصة هلاك قوم لوط، أمر الله لوطًا أن يسري بأهله بالليل، ثم قال معقباً ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.[٩٤]

وسواء صبحهم العذاب الذي بُيِّت لهم أم مساهم، فإن ساعة العذاب حين تقترن بالليل الساكن الحالك، تُشعر بفجاءة النقمة التي حلت بالمكذبين، كما إن أولى اللحظات بعد الهلاك، تَلبس ثوب الإصباح حين تكشف عن آثار النقمة التي حصدت المكذبين، وقد عُبر بالإصباح في سياق الإخبار عن حال قوم صالح وقوم شعيب عليهما السلام بعد أن حصدتهم الرجفة ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾[٩٥]، وأهلكتهم الصيحة ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾.[٩٦] ويُحتمل أن تكون "أصبح" -في هذه المواضع ونظائرها -تامةً فتكون (جاثمين) حالاً أو تكون ناقصة فتكون (جاثمين) خبراً -ورجحه الحلبي-والظرف على التقديرين متعلق به، ولا يصح في هذا السياق أن يكون الظرف خبراً لإفضائه إلى كون الإخبار بكونهم في دارهم مقصودًا بالذات.[٩٧] ولكل إعراب وجهته الدلالية، فالتامة نصٌّ في التوقيت، والناقصة للصيرورة مشوبةً بإيحاءات الزمان أو لمطلق الصيرورة كما يُفهم من كلام بعض المفسرين.

ودلالة "أصبح" التامة أرجح —ولاسيما في قصة ثمود-لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾،[٩٨] قال الطبري: أي أخذتهم صيحة الهلاك حين أصبحوا من اليوم الرابع من اليوم الذي وُعدوا العذاب، فإنهم لما عقروا الناقة كانت آية عذابهم ثلاثة أيام، تُصبح وجوههم في الأول مصفرة، وفي الثاني محمرة، وفي الثالث مسودة، ثم ينزل العذاب صبيحة الرابعة.[٩٩]

وأيًّا ما كان توجيه "أصبح" فإن إيحاء زمانها حاضرٌ عند البقاعي وهو يُفسر هذه الآيات مستلهمًا من دلالة الإصباح إشارات تتكامل بها تفاصيل المشهد، وتتنامى المعاني، وتتعمق العبر، يقول في معنى {أصبحوا}: (زيادة في التخويف والتأسيف، بما وقع لهم من التحسير -لو أدركه أحد منهم- لأن

الإنسان يفرح إذا أصبح بقيامه من نومه مستريحاً قادراً على ما يريد من الحركات للاستمتاع بما يشتهي من التصرفات، فأصبح هؤلاء -بعد هذه الصفة على ما قص الله- خفوتًا أجمعين كنفس واحدة رجالاً ونساء صغاراً وكباراً كأنهم لم يكونوا أصلاً).[١٠٠] ويقول: (ولما ذكر الصيحة، ذكر ما تسبب عنها فقال: ﴿فَأَصْبَحُوا﴾ أي: في الوقت الذي يتوقع الإنسان فيه السرور وكلَّ خير ﴿فِي دِيَارِهِم جاثِمِين﴾ أي: ساقطين لازمين لمكانهم)،[١٠١] ومعنى ﴿جاثمين﴾: (خامدين موتى لا حراكَ بهم، وأصلُ الجثومِ: البروكُ).[١٠٢] وهي إما كناية عن الهمود أو استعارة للهيئة التي أصبحوا عليها بعد العذاب، قال الطاهر: (الجاثم: المكب على صدره في الأرض مع قبض ساقيه كما يجثو الأرنب، ولما كان ذلك أشد سكونًا وانقطاعًا عن اضطراب الأعضاء استعمل في الآية كناية عن همود الجثة بالموت، ويجوز أن يكون المراد تشبيه حالة وقوعهم على وجوههم حين صعقوا بحالة الجاثم تفظيعًا لهيئة ميتتهم، والمعنى أنهم أصبحوا جثثًا هامدة ميتةً على أبشع منظر لميت).[١٠٣]

وقد أفرد البيان المعجز لفظ الدار مع الرجفة وجمعه مع الصيحة، وللعلماء في توجيه ذلك مذاهب: **الأول** أن الصيحة عبارة هنا عن مطلق العذاب دون تقييد بصفة، وهو من الألفاظ الكلية؛ وأما الرجفة فهي الزلزلة وهذه دلالة خاصة جزئية، فالصيحة من حيث الكلية تطلق على ما كان من العذاب بالرجفة وغيرها، وإذا عبرنا بالرجفة لم يتناول لفظها إلا ما كان عذابًا بها، فناسب عموم الصيحة جمع الديار، وناسب خصوص الرجفة إفراد الدار. وهذا اختيار الغرناطي؛[١٠٤] و**الثاني**: قال البقاعي: ولعل توحيد الدار مع الرجفة وجمعها مع الصيحة، للإشارة إلى عظم الزلزلة والصيحة في الموضعين، وذلك لأن الزلزلة إذا كانت في شيء واحد كانت أمكن، فتكون في المقصود من النكال أعظم، والصيحة من شأنها الانتشار، فإذا عمت الأماكن المتنائية والديار المتباعدة كانت أشد، وحاصله أنه حين عبر بالرجفة وحّد الدار إشارة إلى شدة العذاب بعظم الاضطراب، وحيث عبر بالصيحة جمع إيماءً إلى عموم الموت بشدة الصوت، ولا مخالفة؛ لأن عذابهم كان بكل منها، ولعل إحداهما كانت سبباً للأخرى، وخُصت الأعراف بما ذكر فيها؛ لأن مقصودها إنذار المعرضين، والرجفة أعظم قرعاً لعدم الإلف لها.[١٠٥]

ثم قال في سورة هود: (وخُصت هود بما ذكر فيها لأن مقصودها أعظم نظر إلى التفصيل، وكل من الديار والصيحة أقرب إلى ذلك)؛[١٠٦] والثالث: اختاره الإسكافي[١٠٧] بعد أن نبّه على جواز تعاقب الإفراد والجمع في مثله إمّا حملاً على أن يراد بدارهم بلدهم أو حملاً على الجنس كما تقول: دينارهم شر من درهمهم، وخلاصة كلامه أنه لما افتتح سبحانه أخبارهم بجمعهم تحت أبٍ واحد بقوله: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ﴾[١٠٨] وقوله: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾[١٠٩] اختار الجمع الدال على التعدد والتفرق للسياق الذي ورد فيه ما يشير إلى تفرقهم وشتات أمرهم وذهاب المعنى الذي كان يجمعهم لأب واحد ودار واحدة، من ذكر إخراج النبي ومن آمن معه قبل العذاب؛ لأن موجب العذاب هو موجب التفرق، قال

تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ◊ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾،[١١٠] وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾؛[١١١] أمّا في سورتي الأعراف والعنكبوت فلم يتقدم في السياق ذكر إخراج نبيهم، فالجمع إنما سيق حيث ذكر إخراجه ومن آمن معه؛[١١٢] والرابع: حكاه الآلوسي عن النيسابوري وهو (أن الصيحة كانت من السماء كما في غالب الروايات لا من الأرض كما قيل، فبلوغها أكثر وأبلغ من الزلزلة فقُرن كل منهما بما هو أليق به).[١١٣]

والنكات –كما يقول البلاغيون–لا تتزاحم، ومدارها على معانٍ لا تتعارض، وإن كان بعضها أظهر من بعض، وهي إشارات توحي بها هيئات الكلام ودقائق السياق، على ما يتسق مع مقاصد الكلام ودلالات نظائره. وفي هذا المقام –مقام فجاءة النقمة– يقول تعالى مخبراً عن ما آل إليه حالُ عاد، وقد كانوا أهل قوة وبأس، فكذبوا فأرسل الله عليهم ريحا صرصرًا، فكانت تقتلعهم اقتلاعًا وتنثرهم صرعى كأعجاز نخل خاوية، وظلت الريح فيهم ثمانية أيام نحسات ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ﴾.[١١٤] يقول البقاعي قوله: (ولما اشتد إصغاء السامع إلى كيفية إصباحهم، قال مترجماً لهلاكهم: {لا ترى}[١١٥] أي: أيها الرائي، فلما عظمت روعة القلب وهول النفس قال تعالى: {إلا مساكنهم} أي: جزاء على إجرامهم، فانطبقت العبارة على المعنى، وعلم أن المراد بالإصباح مطلق الكون، ولكنه عبر به لأن المصيبة فيه أعظم).[١١٦]

وفي عذاب أصحاب الجنة يقول سبحانه ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ◊ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ◊ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ﴾.[١١٧] ودلالة الزمان هنا حاضرة حضورا واضحا، فـ: "أصبح" بين "نائمين" و"مصبحين"، وهي وإن دلت على الصيرورة، إلا أنه لا تعارض بينهما؛ لأنه ليس من شرط معنى الصيرورة انفكاك العلاقة بالزمن، يقول البقاعي: {فأصبحت} (أي فتسبب عن هذا الطائف الذي أرسله القادر الذي لا يغفل ولا ينام على مآل من لا يزال أسير العجز والنوم فعلاً أو قوة أن صارت جنتهم وقت اجتنائهم لها بالغد وسرورهم بها {كالصريم} أي: كالأشجار التي صرم عنها ثمرها).[١١٨]

وفي الوعيد باستلاب النعمة وفجاءة النقمة يقول جل شأنه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾[١١٩]. يقول البقاعي: (ولما كانت النعمة أشد ما يكون إذا كانت في الصباح الذي هو موضع ارتقاب الفلاح قال: ﴿أصبح ماؤكم﴾ أي الذي تعدونه في أيديكم).[١٢٠] وهكذا تتبوأ "أصبح" من سياقات العذاب موضعا يفرغ حمولات المفاجأة بالنقمة على المشهد، فتنطوي حال المعذبين في ليلة غافلة سادرة، ليُطل الصبح بضيائه على آثار الهلاك، ومصارع الهالكين.

هـ.مقام الندم: للندم والحسرة مرارة تعتاد صاحبها كلما طوى ليل كربه، وأصبح يفتل خيوط صباحٍ جديد، لم يعد يشعر بتجدد الحياة فيه، بل صار يلوك بقايا مرارات السهاد في فمه، بعيدًا عن دثار الليل وستره... صباح الحسرة أشد لحظات اليوم قسوة؛ لأن صاحبه ينتفض من كنّه مثقلاً مشوشًا، تصطك في ذهنه المفارقات التي يحملها كل صباح ينشر ضياءه على المفلس والغني، والضعيف والقوي، مساعٍ شتّى، والكلُّ غادٍ، إلا ذلك الذي تأكل قلبه الحسرة، يتجرعها ولا يكاد يسيغها، يقول أبو ذؤيب وقد أكلت قلبه الحسرة أن لم يجد ما يدفع به الموت عن بنيه:

أَمْ ما لِجَنْبِكَ لا يُلائِمُ مضْجَعاً إلاَّ أَقَضَّ عَليكَ ذَاكَ المضْجَعُ

فأَجَبْتُها أَمَّا ل جِسْمي أَنَّهُ أَوْدَى بَنِيَّ منَ البلادِ فَوَدَّعُوا

أَوْدَى بَنِيَّ وأَعْقَبوني غُصَّةً بَعْدَ الرُّقَادِ وعَبْرَةً لا تُقْلِعُ[١٢١]

فالغصة إنما كانت تعتاده بعد الرقاد، والرقاد إنما كان على مضجع أقضته المواجع، وهكذا تكون صباحات أصحاب المواجع والحسرات، فصبيحة النادم قصة تختصر مشاعر الألم والمعاناة في في ليلة مثقلة بالهموم، تجلوها صبيحة صارخة بالحسرات، حين تتجلى قسمات الطرق، وتتراءى غايات السالكين، وتعصف بالخاسر حسرات الفوات، وهو يرى موضع قدميه في طريق الفلاح قد ورثه غيره، وساخت قدماه هو في طريق الغبن والخيبة.

وفي الذكر الحكيم حضور كثيف لـ: "أصبح" مقرونة بالندم، وكأن مقامها مقام ذهاب السكرة وانتباه الفكرة، حيث تنقضي اللذات، وتتجلى المآلات، وتتوالى الحسرات، يقول تعالى في قصة ابني آدم: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ◊ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾.[١٢٢] كانت غشاوة الحسد والغضب تعمي بصره وبصيرته، وتؤزه إلى اجتراح جرمٍ لا عهد للناس به، فلما قضى ما قضى، وانطفأت النار في قلبه، وذاب سواد الحقد في مرارة الذنب، وأصبح من الخاسرين، أعيد عليه المشهد من جديد، بحيث يرى كل التفاصيل، ونشر الغرابان أمام عينيه ما طواه غيُّه، فرأى عماه يقوده إلى فعلته، ورأى فعلته تغوص به في الخسران؛ فاستيقظ الندم في قلبه، وهكذا تلقي "أصبح" ظلالها في مشهد الخسران المنوط بمقام جلاء الحقائق، ثم في مشهد الندامة.

وجلاء الحقائق مقام موصول بالاعتبار، يكشف حقائق الحدث، ويخطُّ على آثار المشهد آية للسائلين، ويصبغ المشهد بألوان الإصباح لتكون الحقائق أجلى ما تكون. أمّا مقام الندم، فيأخذ السياق إلى أعماق النفس، لا يلوي على ما حولها، بل يقف على حقيقة ما قام في نفس صاحب الندامة من ألم وحسرة، ويفرغ في هذه المشاعر أنفاس صبح طوى ليلة مثقلة، ليشحن جوّ القصة بمشاعر الندم الشديد بعد الفوات، وهكذا تقترن "أصبح" بمقام الندم اقترانا مطردا، فلا نكاد نجد للندم ذكرا في القرآن إلا في

معية "أصبح"، يقول تعالى في حال المنافقين الذين يوالون اليهود والنصارى ليتخذوا عندهم يدا يأمنون بها: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾.[١٢٣] وفي شأن المكذبين بالرسل، المعرضين عن الحق، ممن حق عليهم العذاب، يقول تعالى في أخبارهم: ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾[١٢٤]، ويقول جل شأنه: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾.[١٢٥] وفي التحذير من أخذ الناس بغير تثبت ولا تبين، يقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾.[١٢٦]

والندم في مثل هذه المقامات ليس ندم التوبة على التفريط في حق الله، وإنما هو ندم بعد فوات الأوان وحلول العقاب أو هو كناية عن حالهم التي آلوا إليها، فهي حال لا يمثلها إلا حسرة النادم ولات حين مندم، يقول البقاعي: (وأشار إلى أن ذلك الندم لا على وجه التوبة أو أنه عند رؤية البأس فلم ينفع أو أن ذلك كناية عن أن حالهم صار حال النادم، لا أنه وجد منهم ندم على شيء ما).[١٢٧]

الخاتمة:

اتجهت عناية الدراسة إلى رصد مقامات "أصبح" والبحث عن إشارات دلالتها المعجمية وأثرها على السياق، وقد أجملت مقامات "أصبح" –تامة أو ناقصة أو محتملة للوجهين–في خمسة مقامات هي: مقام إسفار النعم، ومقام جلاء الحقائق، ومقام سهاد الكرب والخوف، ومقام فجاءة النقمة، ومقام الندم.

استعرضت في كل مقام سياقاته، واقتصرت على ما يجلي المقصد من إشارات المفسرين، وتوقفت عند ما استوقفني من سؤالات البحث في كل مقام، واكتفيت بما بسطت في موضع عن إعادته في نظيره، ويمكن إيجاز أهم النتائج فيما يأتي:

١. يتأثر المعنى بالدلالة المعجمية للتراكيب الوظيفية، وما يلحق ذلك من الفروق الدلالية، ولو على سبيل الإشارة.
٢. يتوقف البحث البياني على النظر في أدق تفاصيل السياق، وربطها بالمقام: مقام الخطاب وأسباب النزول، ومقام الحدث المحكي.
٣. مما يجلي المعنى: الوقوف على نظائر الآية لجمع أطراف القصة وتَبَيُّن وجه دلالة ما تعاقب من الألفاظ، فسياقات المتشابه اللفظي ووجوه القراءات يجلي بعضها بعضاً.
٤. إطلاقات المفسرين وعمومات التفسير؛ كثيراً ما تكون على سبيل التجوز أو التغليب، فلا ينبغي أخذها على إطلاقها، بل توضع في موضعها أو يستدرك عليها بما يثبت من قرائن وأدلة تمنع اطرادها.

كذلك كشف لنا البحث عن قضايا ومسالك ينبغي أن تتجه إليها عناية الباحثين في البلاغة القرآنية، ونوجز ذلك في التوصيات الآتية:

أ. إنجاز معجم دلالي لألفاظ القرآن يعنى بالفروق في ضوء السياقات.

ب. استكمال مشروع "معاني النحو" وتنسيق الجهود البحثية لتحرير دلالات التراكيب النحوية والفروق بين الأساليب والأدوات، وكثير من هذا منجز في رسائل أو كتب علمية.

ج. إنجاز كشاف للمسائل البلاغية في كتب التفسير، يجمع أطراف المسائل ومفاتيح تطبيقاتها، ويتيح للباحثين مادة خصبة لإعادة تحرير القضايا في ضوء عطاءات المدونة التفسيرية الحافلة بالمسائل والمناقشات.

د. توجيه البحث البلاغي إلى الاستعمال الذي جرت عليه سنن العرب، باستقراء المسائل في الشعر القديم وكلام الفحول؛ لأن هذه الأصول لم تحظ –ولا غرابة–بما حظيت به سياقات الوحيين –ولا سيما القرآن الكريم– من دراسة وبحث، وضبط لحدود الدلالة في ضوء الاستعمال، إذا السياقات حافلة بما يجلي المعنى من قرائن وملابسات، وكل ذلك يعين على تبيّن دلالات الألفاظ والصيغ.

هوامش البحث:

١ الخطابي، أبو سليمان حمد بن مُحَمَّد، **بيان إعجاز القرآن**، ط٤، تحقيق: مُحَمَّد خلف الله أحمد ومُحَمَّد زغلول سلام، (القاهرة: دار المعارف، د. ت)، ص٢٩.

٢ ابن عطية، أبو مُحَمَّد عبد الحق الأندلسي، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، ط٢، تحقيق: الرحالة الفاروق وعبد الله الأنصاري والسيد عبد العال ومُحَمَّد العناني، (قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ٢٠٠٨م)، ج١، ص٢٧.

٣ ابن فارس، أبو الحسين أحمد، **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق: عبد السلام هارون، (بيروت: دار الجيل، ٢٠٠٠م)، ج٣، ص٣٢٨.

٤ الأزهري، أبو منصور مُحَمَّد، **تهذيب اللغة**، تحقيق: عبد السلام هارون، (القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، د.ت)، ج٤، ص١٥٧.

٥ سورة الحجر، الآية ٨٣.

٦ انظر: الأزهري، **تهذيب اللغة**، ج٤، ص١٥٧؛ وابن منظور، جمال الدين مُحَمَّد بن مكرم بن علي، **لسان العرب**، ط٣، (بيروت: دار صادر، ١٩٩٤م)، ج٢، ص٥٠٢.

٧ الرازي، فخر الدين مُحَمَّد بن عمر، **المحصول في علم أصول الفقه**، ط٢، تحقيق: طه العلواني، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٢م)، ج١، ص٣٠٧.

٨ المقدسي، أبو مُحَمَّد موفق الدين عبد الله بن قدامة، **روضة الناظر وجنة المناظر في أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل**، ط٢، (بيروت: مؤسسة الريّان للطباعة النشر والتوزيع، ٢٠٠٣م)، ج١، ص٥٠٣.

٩ انظر: سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان، **كتاب سيبويه**، ط١، تحقيق: عبد السلام هارون، (بيروت: دار الجيل، د.ت)، ج٤، ص٦٢.

١٠ الأزهري، **تهذيب اللغة**، ج٤، ص١٥٥. ولم أقف على تخريج البيت.

١١ سورة القمر، الآية ٢٧.

١٢ انظر: الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، ط٣، تحقيق: مصطفى حسين أحمد، (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٨٧م)، ج١، ص٩٦؛ والبيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، ط١، تحقيق: مُحَمَّد عبد الرحمن المرعشلي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٨٨م)، ج١، ص٥٧.

١٣ سورة البقرة، الآية ٢٣.

١٤ الزمخشري، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، ج١، ص٩٦. ومعنى من محازه أي: مواقعه (انظر: الطيبي، شرف الدين الحسين بن مُحَمَّد بن عبد الله، **فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب وهو حاشية الطيبي على الكشاف**، ط١، تحقيق: مجموعة من المحققين، (دبي: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، ٢٠١٤م)، ج٢، ص٣١٤.

١٥ انظر: السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، **همع الهوامع في شرح جمع الجوامع**، ط١، تحقيق: عبد السلام هارون، وعبد العالم سالم مكرم، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٣م)، ج٥، ص١٦.

١٦ سورة الأنعام، الآية ٣٧.

١٧ سورة الإسراء، الآية ٩٥.

١٨ الحلبي، أحمد بن يوسف بن عبد الدايم، **الدر المصون في علوم الكتاب المكنون**، ط٢، تحقيق: أحمد الخراط، (دمشق: دار القلم، ٢٠٠٤م)، ج١، ص١٩٨.

١٩ المرجع السابق نفسه، ج٧، ص٦٠.

٢٠ نفسه، ج١، ص٥١٢.

٢١ ابن عاشور، مُحَمَّد الطاهر بن مُحَمَّد بن مُحَمَّد الطاهر، **التحرير والتنوير**، (تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م)، ج١، ص١١؛ وانظر منه: ج١٩، ص١٥١، ج٣٠، ص٢٦٨.

٢٢ المرجع السابق نفسه، ج٣، ص١٤٧.

٢٣ يقول الدكتور محمود توفيق في كتابه **الإمام البقاعي ومنهاجه في تأويل بلاغة القرآن**، ص٢٨٧: والمراد بمدلول المادة ما ترثه الكلمة من أصولها التي كونتها، تحملُ هذا الميراث معها في مواقعها، مازجة بعض المدلولات التي تكتسبها من روافد أخرى بها مدلولات لصورتها أو مدلولات أدائها.

٢٤ الحلبي، **الدر المصون في علوم الكتاب المكنون**، ج١، ص٢٦١.

٢٥ الأندلسي، أبو حيان، **ارتشاف الضرب من لسان العرب**، ط١، تحقيق: رجب عثمان مُحَمَّد، (القاهرة: مكتبة الخانجي، ٢٠٠٨م)، ج٤، ص٢٠٨٨؛ وانظر: حسن، عباس، النحو الوافي، ط١٥، (القاهرة: دار المعارف، د. ت)، ج٢، ص١٥٠.

٢٦ سيبويه، **كتاب سيبويه**، ج١، ص٤٦.

٢٧ انظر: الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر، **المفصل في علم العربية**، ط١، تحقيق: فخر صالح قدارة، (عَمّان: دار عمار، ٢٠٠٥م)، ص٣٥٢.

٢٨ سورة الروم، الآية ١٧.

٢٩ سورة الشورى، الآية ٥٣.

٣٠ انظر: ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، ج٣، ص٣٢٥.

٣١ سورة الحجرات، الآية ٦.

٣٢ سورة آل عمران، الآية ١٠٣

٣٣ الرازي، فخر الدين مُحَمَّد بن عمر، **مفاتيح الغيب**، ط٣، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠٠م)، ج٢٨، ص٩٩.

٣٤ سورة الملك، الآية ٣٠.

٣٥ القرطبي، أبو عبد الله مُحَمَّد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري، **الجامع لأحكام القرآن**، ط١، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٧م)، ج٤٠، ص١٦٤.

٣٦ سورة المائدة، الآية ٣٠.

٣٧ البقاعي، برهان الدين إبراهيم بن عمر، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، ط١، تحقيق: مُحَمَّد عبد الحميد شيخ الجامعة النظامية، (حيدر آباد: دائرة المعارف العثمانية، ١٩٦٩م)، ج٦، ص١٢٢.

٣٨ الجرجاني، عبدالقاهر بن عبدالرحمن، **دلائل الإعجاز**، ط٣، تحقيق: محمود مُحَمَّد شاكر، (جدة: دار المدني، ١٩٩٣م) ص٣٠٢.

٣٨ سورة الروم، الآية ١٧.

٣٩ سورة الكهف، الآية ٣٩-٤٥.

٤٠ سورة آل عمران، الآية ١٠٣.

٤١ ثعلب، أبو العباس، **شرح شعر زهير بن أبي سلمى**، ط٣، تحقيق: فخر الدين قباوة، (دمشق: مكتبة هارون الرشيد للتوزيع، ٢٠٠٨م)، ص٣٥.

٤٢ الكرماني، أبو القاسم برهان الدين محمود بن حمزة، **غرائب التفسير وعجائب التأويل**، (جدة: دار القبلة للثقافة الإسلامية - بيروت: مؤسسة علوم القرآن، د. ت)، ج١، ص٢٦٤؛ وانظر: الآلوسي، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود، **روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني**، (بيروت: دار إحياء التراث، د. ت)، ج٢، ص٢٣٦.

٤٣ القنوجي، أبو الطيب مُحَمَّد صديق خان، **فتح البيان في مقاصد القرآن**، عني به: عبدالله بن إبراهيم الأنصاري، (بيروت: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، ١٩٩٢م)، ج٢، ص٣٠٢.

٤٤ سورة الحج، الآية ٦٣.

٤٥ ابن عطية، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، ج٤، ص١٣١.

٤٦ الآلوسي، **روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني**، ج٩، ص١٨٢.

٤٧ الزمخشري، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، ج٣، ص١٦٨.

٤٨ العمادي، أبو السعود مُحَمَّد بن مُحَمَّد، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**، ط٤، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٩٤م)، ج٦، ص١١٧.

٤٩ سورة فاطر، الآية ٩.

٥٠ شاكر، علي ذو الفقار، **ديوان تأبط شراً وأخباره**، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٤م)، ص٢٢٤-٢٢٥. وبين هذين البيتين بيتان كما ورد في الديوان.

٥١ الزمخشري، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، ج٣، ص٦٠١.

٥٢ الآلوسي، **روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني**، ج٤، ص٢١٥.

٥٣ العكبري، أبو البقاء عبد الله بن الحسن، **التبيان في إعراب القرآن**، ط٢، تحقيق: علي مُحَمَّد البجاوي، (بيروت: دار الجيل، ١٩٨٧م)، ج٢، ص٩٤٧.

٥٤ سورة الصف، الآية ١٤.

٥٥ البقاعي، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، ج٢٠، ص٤٢.

٥٦ الكرماني، **غرائب التفسير وعجائب التأويل**، ج٢، ص١٢٠٩.

٥٧ انظر: البغوي، أبو مُحَمَّد الحسين بن مسعود، **معالم التنزيل في تفسير القرآن**، ط٤، تحقيق: مُحَمَّد عبد الله النمر وعثمان جمعة ضميرية وسليمان مسلم الحرش، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٩٩٧م)، ج٨، ص١١٠؛ والرازي، **مفاتيح الغيب**، ج٢٩، ص٥٣٣؛ والقرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج١٨، ص٩٠.

٥٨ سورة المدثر: الآية ٣٤.

٥٩ الأزهري، **تهذيب اللغة**، ج١٢، ص٢٧٨.

٦٠ ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، ج٣، ص٨٢.

٦١ أخرجه البخاري (٣) ومسلم (٢٥٢).

٦٢ انظر: ابن دُرُسْتَوَيْه، عبد الله بن جعفر بن مُحَمَّد، **تصحيح الفصيح وشرحه**، تحقيق: مُحَمَّد بدوي المختون، (القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ٢٠٠٥م)، ص٢٧٣.

٦٣ سورة المائدة، الآية ١٠٢؛ وانظر: الطبري، أبو جعفر مُحَمَّد بن جرير، **جامع البيان عن تأويل القرآن**، ط١، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، (القاهرة: هجر للطباعة والنشر والإعلان، ٢٠٠٢م)، ج٩، ص٢٥.

٦٤ انظر: الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج١٢، ص٤٤٥.

٦٥ الأصفهاني، الراغب، **مفردات ألفاظ القرآن**، ط٣، تحقيق: صفوان داوودي، (دمشق: دار القلم، ٢٠٠٣م)، ص٧١٤.

٦٦ ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٧، ص٦٩؛ وانظر منه: ج١، ص٥٨٦.

٦٧ سورة الكهف، الآية ٤٥.

٦٨ سورة الكهف، الآية ٣٩-٤٥.

٦٩ سورة يونس، الآية ٢٤.

٧٠ سورة فصلت، الآية ٢٣.

٧١ الطبري، **جامع البيان عن تأويل القرآن**، ج٢٠، ص٤١٢.

٧٢ البقاعي، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، ج١٧، ص١٧٣.

٧٣ سورة المائدة، الآية ٥٣.

٧٤ البقاعي، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، ج٦، ص١٩٠.

٧٥ سورة القصص، الآية ٨٢.

٧٦ البقاعي، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، ج١٤، ص٣٦٠.

٧٧ الكندي، امرؤ القيس، **ديوان امرئ القيس**، ط٤، تحقيق: مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٤م)، ص ١٨.

٧٨ النابغة الذبياني، أبو زياد بن معاوية، **ديوان النابغة الذبياني**، ط٣، تحقيق: مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم، (القاهرة: دار المعارف، د. ت)، ص٤٠.

٧٩ المرجع السابق نفسه، ص٣٣.

٨٠ ابن برد، بشار، **ديوان بشار بن برد**، تقديم وشرح وتكميل: مُحَمَّد الطاهر بن عاشور، (القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٩م)، ج١، ص١٠٤.

٨١ سورة القصص، الآية ١٠.

٨٣ انظر: الطبري، **جامع البيان عن تأويل القرآن**، ج١٨، ص١٦٩.

٨٤ الزمخشري، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، ج٣، ص٣٩٥.

٨٥ ابن عطية، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، ج٤، ص٢٧٨.

٨٦ انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٢٠، ص٨٠؛ والبروسوي، إسماعيل حقي الخلوتي، **روح البيان**، (بيروت: دار الفكر، د. ت)، ج٦، ص٣٨٥-٣٨٦؛ والنسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين، **مدارك التنزيل وحقائق التأويل**، ط١، تحقيق: يوسف علي بديوي، (بيروت: دار الكلم الطيب، ١٩٩٩م)، ج٢، ص٦٣١.

٨٧ البقاعي، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، ج١٤، ص٢٤٩.

٨٨ سورة القصص، الآية ١٨.

٨٩ سورة القصص، الآية ١٨-١٩.

٩٠ الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج٢٤، ص٥٨٦؛ وانظر: الشوكاني، مُحَمَّد بن علي، **فتح القدير**، ط١، (دمشق: دار ابن كثير، ١٩٩٤م)، ج٤٠، ص١٩٠.

٩١ القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج١٣، ص٢٦٤.

٩٢ سورة الأعراف، الآية ٤٤؛ وانظر: سورة الأعراف، الآية ٩٧؛ وسورة يونس، الآية ٥٠.
سورة الصافات، الآية ١٧٦ – ١٧٧.
٩٤ سورة هود، الآية ٨١.
٩٥ سورة الأعراف، الآية ٧٨، ٩١؛ وسورة العنكبوت، الآية ٣٧.
٩٦ سورة هود، الآية ٦٧، ٩٤.
٩٧ انظر: الحلبي، **الدر المصون في علوم الكتاب المكنون**، ج٥، ص٣٧٠؛ والخفاجي، أحمد بن مُحَمَّد بن عمر شهاب الدين، **حاشية الشهاب "(عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي"**، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د. ت)، ج٥، ص١٣١؛ والآلوسي، **روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني**، ج٤، ص٤٠٣، ج٦، ص٣٢٣.
٩٨ سورة الحجر، الآية ٨٣.
٩٩ انظر: الطبري، **جامع البيان عن تأويل القرآن**، ج١٤، ص١٠٤، ج١٢، ص٤٥٨.
١٠٠ البقاعي، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، ج٩، ص٣٢٦.
١٠١ السابق نفسه، ج٧، ص٤٤٩.
١٠٢ العمادي، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**، ج٣، ص٢٤٤.
١٠٣ ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٨، ص٢٢٩.
١٠٤ الغرناطي، **ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل**، ط١، تحقيق: سعيد الفلاح، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٣م)، ج١، ص٢٠٠.
١٠٥ انظر: البقاعي، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، ج٩، ص٣٢٦؛ وانظر: السامرائي، فاضل صالح، **لمسات بيانية في نصوص من التنزيل**، ط٢، (عمَّان: دار عمار، ٢٠٠٢م)، ص٦٠٩.
١٠٦ البقاعي، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، ج٩، ص٣٢٦.
١٠٧ الإسكافي، أبو عبد الله الخطيب، **درة التنزيل وغرة التأويل**، ط١، تحقيق: د. مُحَمَّد مصطفى آيدين، (مكة المكرمة: جامعة أم القرى، ٢٠٠٢م)، ج٢، ص٦١٨.
١٠٨ سورة هود، الآية ٦١.
١٠٩ سورة هود، الآية ٨٤.
١١٠ سورة هود، الآية ٦٦–٦٧.
١١١ سورة هود، الآية ٩٣–٩٤.
١١٢ انظر: الإسكافي، **درة التنزيل وغرة التأويل**، ج٢، ص٦١٨.
١١٣ الآلوسي، **روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني**، ج٤، ص٤٠٣.
١١٤ سورة الأحقاف، الآية ٢٥.
١١٥ قرأ بالتاء المفتوحة على الخطاب ونصب (مساكنهم): ابن كثير ونافع وابن عامر وأبو عمرو والكسائي. انظر: البغدادي، أبو بكر بن مجاهد، **السبعة في القراءات**، ط٢، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٠م)، ص٥٩٨.
١١٦ البقاعي، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، ج١٨، ص١٧٠.
١١٧ سورة القلم، الآية ١٩–٢١.
١١٨ البقاعي، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، ج٢٠، ص٣٠٩.
١١٩ سورة الملك، الآية ٣٠.
١٢٠ البقاعي، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، ج٢٠، ص٢٧١.
١٢١ السكري، أبو سعيد الحسن بن الحسين، **شرح أشعار الهذليين**، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، (القاهرة: مكتبة دار العروبة، د. ت)، ج١، ص٥–٦.

١٢٢ سورة المائدة، الآية ٣٠-٣١.

١٢٣ سورة المائدة، الآية ٥٢.

١٢٤ سورة المؤمنون، الآية ٤٠.

١٢٥ سورة الشعراء، الآية ١٥٧.

١٢٦ سورة الحجرات، الآية ٦.

١٢٧ البقاعي، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، ج١٤، ص٧٨.

المراجع:
References:

Al-ʾalūsi, ʾabu al-Faḍl Shihāb al-Dīn al-Saiyid Maḥmūd, Rūḥ al-Maʿāni Fī Tafsīr al-Qurʾān al- Karīm wa al-Sabʿ al-Mathāni, (Beirut: Dār ʾiḥyāʾ al-Turāth, No. date).

Al-ʾAndalusiy, ʾabu Ḥayyān, *Irtishāf al-Ḍarb Min Lisān al-ʿarab*, 1st Edition, Taḥqīq: Rajab ʿuthmān Muḥammad, (Cairo: Makatabah alKhānjI, 2008).

al-ʾaṣfahāni, al-Rāghib, *Mufardāt ʾalfāẓ al-Qurʾān*, 3rd Edition, Taḥqīq: Ṣafwān DāwūdI, (Damascuss: Dār al-Qalam, 2003).

Al-ʾAzhrIy, ʾabu Manṣūr Muḥammad, *Tahdhīb al-Lughah*, Taḥqīq: ʿabd al-Salām Hārūn, (Cairo: al-Dār al-Maṣriyyah Lilta'līf Wa al-Tarjamah, No. date)..

Al-Baghawiy, ʾabu Muḥammad al-Ḥusein Bin Masʿūd, *Maʿālim al-Tanzīl Fī Tafsīr al-Qurʾān*, 4th Edition, Taḥqīq: Muḥammad ʿabd Allah al-Namr wa ʿuthmān Jumʿah Ḍamīriyyah wa Sulimān Muslim al-Ḥarsh, (Riyad: Dār Ṭībah Lilnashr wa al-Tawzīʿ, 1997).

Al-Baghdādi, ʾabu Bakr Bin Mujāhid, *al-Sabʿah Fī al-Qirāʾāt*, 2nd Edition, (Cairo: Dār al- Maʿārif, 1980).

Al-Baiḍāwi, Nāṣir al-Dīn ʾabu Saʿīd ʿabd Allah Bin ʿumar, *ʾanwār al-Tanzīl wa ʾasrār al-Taʾwīl*, 1st Edition, Taḥqīq: Muḥammad ʿabd al-Raḥmān al-Marʿshli, (Beirut: Dār ʾiḥyāʾ al-Turāth al-ʿarabiyy, 1988).

Al-Biqāʿi, Burhān al-Dīn ʾibrāhīm Bin ʿumar, *Nanẓm al-Durr Fī Tanāsub al-ʾāyāt wa al-Suwar*, 1st Edition, Taḥqīq: Muḥammad ʿabd al-ḥmyd shykh al-jāmʿh al-nẓāmyt, (Ḥaidar ʾābād: Dāʾirah al-Maʿārif al-ʿuthmāniyyah, 1969).

Al-Bushrāwi, ʾismaʿīl Ḥaqiy al-Khalwati, *Rūḥ al-Baiān*, (Beirut: Dār al-Fikr, No. date).

Al-Gharnāṭi, *Malāk al-Taʾwīl al-Qāṭiʿ Bidhwi al-ʾilḥād wa al-Tʿṭīl Fī Tawjīh al-Mutashābah al- Lafẓ Min ʾāiy al-Tanzīl*, 1st Edition, Taḥqīq: Saʿīd al-Falāḥ, (Beirut: Dār al-Gharb al- ʾislāmiyy, 1983).

Al-Ḥalabi, ʾaḥmed Bin Yousif Bin ʿabd al-Dāyim, *al-Dur al-Maṣūn Fī ʿulūm al-Kitāb al-Maknūn*, 2nd Edition, Taḥqīq: ʾaḥmed al-Kharrāṭ, (Damascuss: Dār al-Qalam, 2004).

Al-ʿimādi, ʾabu al-Suʿūd Muḥammad Bin Muḥammad, *ʾirshād al-ʿaqal al-Salīm ʾilā Mazāyā al-Kitāb al-Krīm*, 4th Edition, (Beirut: Dār ʾiḥyāʾ al-Turāth al-ʿarabiyy, 1994).

Al-ʾiskāfī, ʾabu ʿabd Allah al-Khaṭīb, *Durrah al-Tanzīl wa Ghurah al-Taʾwīl*, 1st Edition, Taḥqīq: Muḥammad Muṣṭafā ʾāyidīn, (Mecca: Jāmiʿah ʾum al-Qurā, 2002).

Al-Jurjāni, ʿabd al-Qāhir Bin ʿabd al-Raḥmān, *Dalāʾil al-ʾiʿjāz*, 3rd Edition, Taḥqīq: Maḥmūd Muḥammad Shākir, (Jeddah: Dār al-Madani, 1993).

Al-Karmāni, ʾabu al-Qāsim Burhān al-Dīn Maḥmūd Bin Ḥamzah, *Gharāʾib al-Tafsīr wa ʿajāʾib al-Taʾwīl*, (Jeddah: Dār al-Qublah Lilthqāfah al-ʾislāmiyyah - Beirut: Muʾassasah ʿulūm al-Qurʾān, No. date)..

Al-khaṭābi, ʾabu Sulimān Ḥamad Bin Muḥammad, *Bayān ʿijāz al-Qurʾān*, 4th Edition, Taḥqīq: Muḥammad Khalaf Allah ʾaḥmed wa Muḥammad Zaghlūl Salām, (Cairo: Dār al-Maʿārif, No. date).

Al-Khfāji, ʾaḥmed Bin Muḥammad Bin ʿumar Shihāb al-Dīn, *Ḥāshiyah al-Shihāb (ʿināyah al-Qāḍi wa Kifāyah al-RāḍI ʿalā Tafsīr al-ʾabiḍāwi)*, (Beirut: Dār ʾiḥyāʾ al-Turāth al-ʿarabiyy, No. date).

Al-Kindi, Umruʾu al-Qais, *Dīwān Umruʾu al-Qais*, 4th Edition, Taḥqīq: Muḥammad ʾabu al-Faḍl ʾibrāhīm, (Cairo: Dār al-Maʿārif, 1984).

Al-Maqdisi, ʾabu Muḥammad Muwaffaq al-Dīn ʿabd Allah Bin Qudāmah, *Rawḍah al-Naāẓir wa Jannah al-Manāẓir Fī ʾuṣūl al-Fiqh ʿalā Madhhab al-ʾimām ʾaḥmed Bin Ḥanbal*, 2nd Edition, (Beirut: Muʾassasah al-Rayyān Lilṭibāʿah wa al-Nashr wa al-Tawzīʿ, 2003).

Al-Nābighah al-Dhubiāni, ʾabu Ziyād Bin Muʿāwiyah, *Dīwān al-Nābighah al-Dhubiāni*, 3rd Edition, Taḥqīq: Muḥammad ʾabu al-Faḍl ʾibrāhīm, (Cairo: Dār al-Maʿārif, No. date).

Al-Nasafi, ʾabu al-Barkāt ʿabd Allah Bin ʾaḥmed Bin Maḥmūd Ḥāfiẓ al-Dīn, *Madārik al-Tanzīl wa Ḥaqāʾiq al-Taʾwīl*, 1st Edition, Taḥqīq: Yousif ʿali Didiwiy, (Beirut: Dār al-Kalim al-Ṭaiyib, 1999).

Al-Qanūji, ʾabu al-Ṭaiyib Muḥammad Ṣidīq Khān, *Fatḥ al-Baiān Fī Maqāṣid al-Qurʾān*, ʿuniya Bihi: ʿabd Allah Bin ʾibrāhīm al-ʾanṣāri, (Beirut: al-Makatabah al-ʿaṣriyyah Lilṭibāʿah wa al-Nashr, 1992).

Al-Qurṭubi, ʾabu ʿabd Allah Muḥammad Bin ʾaḥmed Bin ʾabi Bakr al-ʾanṣāri, *al-Jāmiʿ Liʾaḥkām al-Qurʾān*, 1st Edition, Taḥqīq: ʿabd Allah Bin ʿabd al-Muḥsin al-Turkiy, (Beirut: Muʾassasah al-Risālah Lilṭibāʿah wa al-Nashr wa al-Tawzīʿ, 2007).

Al-Rāzi, Fakhr al-Dīn Muḥammad Bin ʿumar, *al-Maḥṣūl Fī ʿilm ʾuṣūl al-Fiqh*, 2nd Edition, Taḥqīq: Ṭaha al-ʿulwāni, (Beirut: Muʾassasah al-Risālah, 1992).

Al-Rāzi, Fakhr al-Dīn Muḥammad Bin ʿumar, *Mafātīḥ al-Ghaib*, 3rd Edition, (Beirut: Dār ʾiḥyāʾ al-Turāth al-ʿarabiyy, 2000).
Al-Sāmurāʾiy, Fāḍil Ṣāliḥ, *Lamsāt Baiāniyah Fī Nuṣūṣ Min al-Tanzīl*, 2nd Edition, (Amman: Dār ʿammār, 2002).
Al-ShwkānI, Muḥammad Bin ʿali, *Fatḥ al-Qadīr*, 1st Edition, (Damascuss: Dār Ibn Kathīr, 1994).
Al-Sukkri, ʾabu Saʿīd al-Ḥasan Bin al-Ḥusein, *Sharḥ ʾashʿār al-Hudhliyīn*, Taḥqīq: ʿabd al-Satār ʾaḥmed Farāj, (Cairo: Makatabah Dār al-ʿurūbah, No. date).
Al-Suyūṭi, ʿabd al-Raḥmān Bin ʾabi Bakr, *Hamʿ al-Hawāmiʿ Fī Sharḥ Jamʿ al-Jawāmiʿ*, 1st Edition, Taḥqīq: ʿabd al-Salām Hārūn, wa ʿabd al-ʿālim Sālim Mukram, (Beirut: Muʾassasah al-Risālah, 1993).
Al-Ṭabri, ʾabu Jaʿfar Muḥammad Bin Jarīr, *Jāmiʿ al-Baiān ʿan Taʾwīl al-Qurʾān, 1st Edition*, Taḥqīq: ʿabd Allah Bin ʿabd al-Muḥsin al-Turkiy, (Cairo: Hajr Lilṭibāʿah wa al-Nashr wa al-ʾiʿalān, 2002).
Al-Ṭaibi, Sharaf al-Dīn al-Ḥusein Bin Muḥammad Bin ʿabd Allah, *Futūḥ al-Ghaib Fī al-Kashf ʿan Qināʿ al-Raib wa Huwa Ḥāshiyah al-Ṭaibi ʿalā al-Kashāf, 1st Edition*, Taḥqīq: Majmūʿah Min al-Muḥqqiqīn, (Dubai: Jāʾizah Dubai al-Duwaliyyah Lilqurʾān al-Karīm, 2014).
Al-ʿukbari, ʾabu al-Baqāʾ ʿabd Allah Bin al-Ḥasan, *al-Tibiān Fī ʿirāb al-Qurʾān*, 2nd Edition, Taḥqīq: ʿali Muḥammad al-Bijāwi, (Beirut: Dār al-Jīl, 1987).
Al-Zamkhshari, ʾabu al-Qāsim Jār Allah Maḥmūd Bin ʿumar, al-Kashāf ʿan Ḥaqāʾiq Ghwāmiḍ al-Tanzīl wa ʿuyūn al-ʾaqāwīl Fī Wujūh al-Taʾwīl, 3rd Edition, Taḥqīq: Muṣṭafā Ḥusein ʾaḥmed, (Beirut: Dār al-Kitāb al-ʿarabiyy, 1987).
Al-Zamkhshari, ʾabu al-Qāsim Jār Allah Maḥmūd Bin ʿumar, al-Mufaṣṣal Fī ʿilm al-ʿarabiyyah, 1st Edition, Taḥqīq: Fakhr Ṣāliḥ Qadārah, (Amman: Dār ʿammār, 2005).
Ḥasan, ʿabbās, *al-Naḥw al-WāFī*, 15th Edition, (Cairo: Dār al-Maʿārif, No. date).
Ibn ʿāshūr, Muḥammad al-Ṭāhir Bin Muḥammad Bin Muḥammad al-Ṭāhir, al-Taḥrīr wa al- Tanwīr, (Tunisia: al-Dār al-Tunisiayh Lilnashr, 1984).
Ibn Burd, Bashār, *Dīwān Bashār Bin Burd*, Taqdīm wa Sharḥ wa Takmīl: Muḥammad al-Ṭāhir Bin ʿāshūr, (Cairo: Maṭbaʿah Lajnah al-Taʾlīf wa al-Tarjamah wa al-Nashr, 1969).
Ibn Durustawīyh, ʿabd Allah Bin Jaʿfar Bin Muḥammad, *Taṣḥīḥ al-Faṣīḥ wa Sharḥuhu*, Taḥqīq: Muḥammad Badawi al-Makhtūn, (Cairo: al-Majlsi al-ʾaʿlā Lilshuʾūn al-ʾislāmiyyah, 2005).
Ibn Fāris, ʾabu al-Ḥusain ʾaḥmed, *Muʿjam Maqāyīs al-Lughah*, Taḥqīq: ʿabd al-Salām Hārūn, (Beirut: Dār al-Jīl, 2000).
Ibn Manẓūr, Jamāl al-Dīn Muḥammad Bin Mukrim Bin ʿali, *Lisān al-ʿarab*, 3rd Edition, (Beirut: Dār Ṣādir, 1994).

Ibn ʿṭiyyah, ʾabu Muḥammad ʿabd al-Ḥaq al-ʾandalisiy, *al-Muḥarrar al-Wajīz Fī Tafsīr al-Kitāb al-ʿazīz*, 2nd Edition, Taḥqīq: al-Raḥḥālah al-Fārūq wa ʿabd Allah al-ʾanṣāri wa al-Saiyid ʿabd al-ʿāl wa Muḥammad al-ʿanāni, (Qatar: Wazārah al-ʾawqāf wa al-Shuʾūn ʾislāmiyyah, 2008).
Shākir, ʿali Dhu al-Faqār, *Dīwān Taʾabbaṭa Sharan wa ʾakhbāruhu*, (Beirut: Dār al-Gharb al- ʾislāmi, 1984).
Sibawīh, ʾabu Bishr ʿamru Bin ʿuthmān, *Kitāb Sibawīh*, 1st Edition, Taḥqīq: ʿabd al-Salām Hārūn, (Beirut: Dār al-Jīl, No.date).
Thaʿlab, ʾabu al-ʿabbās, *Sharḥ Shiʿr Zuhīr Bin ʾabi Salama*, 3rd Edition, Taḥqīq: Fakhr al-Dīn Qabāwah, (Damascuss: Makatabah Hārūn al-Rashīd Liltawzīʿ, 2008).